المقال الحادي عشر

هل العلمانية هي العلمية؟

السؤال الذي جعلته عنواناً لهذا المقال ورد في كتاب العلمانية المنشأ والأثر لمؤلفه زكريا فايد وقد وعدت القراء الكرام أن استعرض منه بعض الأجزاء وهذا المقال الثاني.

شاع بين عامة الناس وأيضاً بين المفكرين استخدام مصطلحي (العلمانية) و(العلمية) بمعنى واحد، ولكن البحث الدقيق حول هذين المصطلحين سرعان ما يظهر الاختلاف البين بينهما.

فالعلمانية تعني فصل الدين وإبعاده عن الدولة، وقيام الدولة على أسس دنيوية لا دينية وقد قامت في الغرب ابتداء من القرن السابع عشر نتيجة خلو المسيحية من أحكام تنظم حركة الدنيا، وتكبيل رجال الدين لقلوب وعقول الغربيين، وادعائهم بأنهم ينفذون أوامر الله وأوامر السماء وأنهم يحكمون الناس بتفويض من الله وأنهم يستندون إلى الصحة المطلقة وأن مفاتيح السماء حكر عليهم.

أما العلمية هي وصف للاتجاهات التي تركز في الدراسة والبحث على النهج العلمي وهذه الاتجاهات هي الوصف والشرح والتحليل في ضوء الملاحظة والتجربة والاستقراء من أجل الكشف عن العلاقات الضرورية الكامنة في طبائع الأشياء وتتميز العلمية بالاتجاه إلى الكم، أي بتحويل الخصائص الكيفية إلى كميات، كما تتميز بالموضوعية وواقعية الظواهر والحقائق التي تتخذ موضوعاً للدراسة والبحث. وتهدف إلى البحث عن العلل القريبة التي تحدد لنا مسار الظواهر وارتباطاتها، كما تهدف بالضرورة إلى الكشف عن القوانين والقضايا العامة الكلية التي تخضع لها لظواهر العلوم.

والعلمية أصبحت سمة مميزة للعلوم التجريبية التي تعتمد على التجربة والمناهج الرياضية وتنحو العلوم الاجتماعية في العصر الحاضر نحو العلمية لأنها أخذت في استخدام الإحصاء والرياضيات والتجارب الميدانية وهكذا يتبدى لنا بوضوح وجلاء لا يتحمل اللبس ولا التأويل الاختلاف الواضح بين العلمانية والعلمية فالعلمانية منهج حياة يبعد الدين عندما يشرع في إدارة الدولة بل وعلى مستوى الأفراد والمجتمع لا يجعل للدين - أي دين - نصيب في توجيه المجتمع وهي أي العلمانية يمكن أن يطلق عليها اسم اللادينية والعلمية اتجاه معرفة القوانين التي تعمل عليها أو بمقتضاها الطبيعة.

لهذا يجب أن نعي تماماً المحاولات التي تحاول أن تلصق في أذهاننا التساوي بين هذين المفهومين وهي تلك المحاولات التي تحاول إدخال المناهج اللادينية (العلمانية) تحت ستار العلم و(العلمية) مدعية أن كل ما هو (علمي) هو بالضرورة (علماني) أو أنهما مسميان لنفس الصفة.

وحقائق التاريخ تثبت لنا هذا بما لا يدع مجالاً للشك، فالعلمانية ظهرت في الفكر الغربي ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي بينما المنهج العلمي ظهر في الحضارة الإسلامية على يد الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمي والبيروني وابن سيناء وغيرهم من علماء المسلمين ثم أنه ليس صحيحاً ما يقال من أن العلمية هي أحد نتائج العلمانية بمعنى أن تحكيم العقل الذي قالت به العلمانية هو الذي أدى إلى ابتكار النهج العلمي وهذه محاولة مدروسة لتزييف التاريخ من أجل إثبات أن الغربيين هم مبتكرو النهج العلمي، وأننا ليس لنا في هذا الأمر فضل السبق بالإضافة إلى ما يؤكده التاريخ من صدور هذا المنهج العلمي من حضارة دينية هي الحضارة الإسلامية وأنه ليس صحيحاً ما يحاوله الغربيون في التأكيد والربط على صدور هذا المنهج العلمي من حضارة لا دينية، على أساس اعتقادهم بأن الدين مكبل لكل إبداع علمي، وهو أمر غير صحيح أكده الواقع التاريخي.

فهناك أمر آخر يجب أن نلتفت عليه وهو أن التصنيع والتغيرات الاقتصادية في أوروبا كانت فقط مصاحبة للنزعة العلمانية ولكنها لم تكن كامنة في

أساسها بدليل قيام نهضتي اليابان والصين الصناعية والاقتصادية. وجنباً إلى جنب تصوراتهم الدينية والتقليدية الموغلة في القدم إلى ما قبل القرون الوسطى وهذه تعني الصلة بين التقدم وبين هذه النزعة العلمانية التي كان مبررها في الغرب لظروفه الخاصة سابقة الذكر والتي لا توجد أية آصرة بشبه بينها وبين ظروف ومعالم بلاد المسلمين، فالدين في بلادنا الإسلامية لم يكبل لا القلوب ولا العقول ولا ا لابتكار، بل حث عليه ودعا له، لذا لم يكن من الغريب أن تنشأ حضارة عظيمة بقوة هذا الدين ودفعه وهي الحضارة الإسلامية التي أشاد بدورها الكثير من مفكري الغرب قبل مفكري العرب أنها كانت أكثر فترات الإنسان على الأرض تسامحاً وعالمية.

بقي أن نقول لمن لم يقتنع بعد بالاختلاف البين بين مصطلحي (العلمانية) و(العلمية) أنه لو رجع إلى معناهما في اللغة الإنجليزية لوجد هذا الفرق واضحاً جلياً، إذ معنى العلمانية بالإنجليزية Secularism بينما معنى العلمية بالإنجليزية هو Scientism.